مفهوم الحظ الأخلاقي وأنواعه

«بحث في مفارقة الحكم للمسئولية الأخلاقية»

د. مصطفى عبد الرؤف راشد أحمد(*)

مقدمة

تتوقف الأحكام الأخلاقية -في كثيرٍ من الأحيان- على مدى قدرة الفاعل على تحمل مسئولية أفعاله وقراراته، وأن يكون قادرًا على تبريرها؛ فعندما نُقيِّم سلوكًا أو فعلًا معينًا، ينبغي أن يكون الفاعل مسئولًا مسئولية تامة عن نتائج أفعاله وتصرفاته، شريطة أن يكون مؤهلًا من الناحية العقلية والنفسية، وهذا يعني أنه من الناحية الأخلاقية مسئول فحسب عن الأفعال التي تقع تحت سيطرته.

وعلى النقيض من ذلك، يرى مؤيدو الحظ الأخلاقي Moral Luck أن هناك عوامل خارجية تؤثر في أفعال المرء وقراراته من ناحية، وتوثر في تقييمنا الأخلاقي من ناحية أخرى؛ لذلك ينبغي ألا نطلق أحكامًا بالثناء أو اللوم من دون مراعاة العوامل والظروف الخارجية التي تؤثر في فعل معين أو اتخاذ قرار محدد؛ لأن كثيرًا ما يحدث أن نحكم على الأشخاص بالثناء أو اللوم دون أن يكونوا مسئولين عن نتائج أفعالهم مسئولية تامة.

وبناء على هذا، تكمن إشكالية البحث الحالي في دحض الحجة القائلة: «ليس للحظ أي صلة بالأخلاق»، وهي الحجة التي أسسها الفيلسوف الألماني «إيمانويل كانط» E. Kant (١٧٢٤-١٨٠٤م) في كتابه «تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق»، حيث رأى أن التقييم الأخلاقي يتوقف على مبدأ السيطرة، واستهجن كل ما يأتي من الحظ، لذا يمثل الحظ مفارقة Paradox بين التقييمات الأخلاقية ومسئولية الأفراد عن أفعالهم وقراراتهم.

(*) مدرس القيم وفلسفة الأخلاق، كلية الآداب، جامعة سوهاج.

وفيما يتعلق بإشكالية البحث، فإنها تتمثل في الإجابة عن التساؤلات الآتية:

- ماذا نقصد بمبدأ السيطرة؟
- هل ثمة علاقة بين المسئولية والحظ؟
- ماذا نعني بالحظ الأخلاقي، وما أنواعه؟
- ما طبيعة التقييمات في الحظ الأخلاقي؟
- هل للحظ دور في تقييماتنا الأخلاقية؟

أمَّا عن المنهج المتبع في البحث، فسأعتمد على المنهج الوصفي التحليلي؛ وذلك من أجل وصف القضايا المطروحة من خلال مجموعة من الأمثلة؛ لبيان وتوضيح المعنى، ثم تحليله تحليلًا دقيقًا.

وتحقيقًا لأهداف البحث، فقد جاء البحث في ثلاثة محاور وخاتمة جاءت على النحو الآتي: المحور الأول يتضمن الحديث عن مبدأ السيطرة؛ تعريفه وأنواعه وعلاقته بالمسئولية الأخلاقية ومفارقته للحظ. بينما يتناول المحور الثاني تعريف الحظ الأخلاقي والفرق بينه وبين الحظ العادي ومفارقة الحظ للمسئولية، ثم عرض ثلاثة انتقادات قُدِّمت لمفهوم الحظ الأخلاقي، أمَّا المحور الثالث ففيه عرض لأنواع الحظ الأخلاقي، خاصة عن «توماس ناجل» Thomas Nagel (١٩٧٣م-)، ممثلة في:

١- الحظ التأسيسي.

٢- الحظ المرتبط بالنتائج.

٣- الحظ المرتبط بظروف المرء.

٤- الحظ المرتبط بأسباب الأفعال السابقة وتأثيراتها.

المحور الأول: مبدأ السيطرة ومفارقته للحظ

تنتج مشكلة الحظ الأخلاقي من حدسين أساسيين متناقضين:

أولهما: أن أساس التقييمات الأخلاقية Moral Assessment ينبغي أن يقتصر على العوامل

الخاضعة لسيطرة الفاعل، وهذا ما يسمى مبدأ السيطرة Control Principle، الذي ينص على: «أننا مُقَيَّمونَ أخلاقيًّا فحسب إلى الحد الذي يعتمد فيه تقييمنا على عوامل تحت سيطرتنا».

ثانيهما: أن هناك عددًا كبيرًا من الحالات التي تعتمد فيها التقييمات الأخلاقية على عوامل خارجة عن سيطرة الفاعلين الأخلاقيين، وهو ما يسمى بمبدأ الحظ الأخلاقي Principle of Moral Luck، وينص على أنه: «يحدث الحظ الأخلاقي عندما يُعَامَل الفاعل بوصفه موضوعًا للحكم الأخلاقي، على الرغم من حقيقة أن جانبًا مهمًّا لِمَا يتم تقييمه يعتمد على عوامل تتجاوز حدوده»(١).

يفترض مبدأ السيطرة -منذ البداية- أن أي إصدار لأحكام أخلاقية حول الفرد يكون فقط في الحالات التي يسيطر فيها على تصرفاته وأفعاله، ويترتب على هذا نشوء مفارقة مع فكرة الحظ الأخلاقي؛ لأن هناك عددًا من الأحكام الأخلاقية مفارقة لمبدأ السيطرة(٢). وتنشأ هذه المفارقة من أن الأخلاق ترتبط -عادة- بمفاهيم مثل: السيطرة والاختيار والمسئولية والثناء Praise واللوم Blame، أمَّا الحظ فيرتبط -عادة- بمفاهيم مثل: الصدفة Chance وعدم القدرة على التنبؤ Unpredictability وعدم السيطرة وعدم ملاءمة الثناء واللوم(٣).

ويمكن تسليط الضوء على مبدأ السيطرة وما يترتب عليه على النحو الآتي:

أولًا: مبدأ السيطرة: نحن مُقيَّمون أخلاقيا فقط إلى المدى الذي يعتمد فيه تقييمنا على عوامل خاضعة لسيطرتنا.

ثانيًا: يترتب على ذلك: يجب ألا يتم تقييم شخصين أخلاقيًا بشكل مختلف؛ طالما أن الاختلافات الأخرى الوحيدة بينهما ترجع إلى عوامل خارجة عن سيطرتهما(٤).

ويبدو أن مبدأ السيطرة والنتيجة الطبيعية التي تنتج عنه معقولة في حد ذاتها، حيث يجد

(1) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Ph.D. College of Arts & Sciences, The Florida State University, ProQuest, 2010, p.5.

(2) Woodford, F. Nicole: Moral Luck, Control, Choice, and Virtue, Ph.D. The University of Hull, England, September 2016, p. 11.

(3) Ibid, p.4.

(4) Nelkin, K. Dana: Moral Luck, Stanford Encyclopedia of Philosophy, Ed by: Edward N. Zalta and Others, Apr 10, 2013, p. 2. In: https: //plato.stanford.edu/entries/moral-luck/.10-4-2019.

الدعـم في ردود أفعالنـا تجاه حالات معينة، فمثلًا إذا اكتشـفنا أن المـرأة التي ضغطت للتو على أصابـع قدميك تم دفعها ببسـاطة، فمن المحتمـل أن حالة الميل إلى إلقاء اللوم سـوف تتلاشى، و يبـدو أن السـبب في ذلك هو عدم رغبتنا في تحميل شـخص ما مسـئولية ما لا يسـيطر عليه. وبالمثل إذا اتخذ السـائقان جميـع الاحتياطات، وكانـا مُلْتَزِمَيْنِ بجميع قواعـد الطريق، وفجأة يركـض كلب أمام سـيارة أحدهما؛ و يُقتـل، ونظرًا لأن ركـض الكلب لم يكن شـيئًا خاضعًا لسـيطرة السائق، فعندئذ يبدو أننا غير مستعدين لإلقاء اللوم على سائق أكثر من الآخر، وعلى الرغم من أننا قد نتوقع ردود فعل مختلفة من السائقين، إلا أن أحدهما لا يستحق تقييمًا أخلاقيًّا أسوأ من الآخر[١].

ينقسم مبدأ السيطرة إلى نوعين، هما:

أولاً: مبدأ السـيطرة التامة Complete Control، وصياغته: يكون للفاعل السيطرة التامة على الحدث، إذا كان:

(أ) يمتلك الفاعل السيطرة التامة على الحدث.

و(ب) يمتلك السيطرة على جميع الأحداث الأخرى التي تسببت في هذا الحدث[٢].

و يبـدو أن هـذا النوع من أنواع السـيطرة يعارض فكرة المسـئولية الأخلاقيـة؛ لأنه بهذا المعنى السـابق لن يكون الفاعل مسـئولًا عن أي شيء على الإطلاق. وهذا ما يشير إليه «مايكل زيمرمان» Michael J. Zimmerman (١٩٥١م-) قائلًا: «يمتلك المرء سـيطرة تامة على شيء ما، فقـط إذا كان حدوثـه لا يتوقف عـلى أي شيء خارج حدود سـيطرة الفاعـل، و يبدو أن هذا الرأي غير قابل للتطبيق من قبل أي شخص وفي أي وقت؛ لأن السيطرة التي لدينا هي في أحسن الأحوال سيطرة جزئية»[٣].

ثانيًـا: مبـدأ السـيطرة المعياريـة Standard Control، وصياغتـه: يمتلك الفاعل سـيطرة معياريـة عـلى الحـدث { أ }، فقـط: ١- إذا كان الفاعـل حرًّا فيـما يتعلق بالحـدث { أ }. ٢- إذا كان الفاعل حرًّا فيما يتعلق بعدم حدوث الحدث { أ }. يشـتق من السـيطرة المعيارية نوع آخر

(1) Ibid, pp.2-3.

(2) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, p.4.

(3) Zimmerman, J. Michael: Moral Luck, A Partial Map, Canadian Journal of Philosophy, Vol.36, No.4, Canada, (Dec., 2006), p.591.

وهو السيطرة المقيدة (المقلصة) Curtailed، وهي: أنه يمكن للفاعل الحد من السيطرة المقيدة على حدث ما، فقط إذا كان الفاعل حرًّا فيما يتعلق بالحدث { أ }؛ ولكنه ليس حرًا فيما يتعلق بعدم حدوث الحدث { أ }[١].

نستنتج مما سبق، أن سيطرة الفاعل على الحدث شرط ضروري للتقييم الأخلاقي وللمسئولية الأخلاقية، وترجع هذه الرؤية فيما يرى «توماس ناجل» إلى الفيلسوف الألماني « كانط »؛ حيث يعتقد أن الحظ الجيد أو السيئ لا ينبغي أن يؤثر في الحكم الأخلاقي على الشخص وأفعاله، ولا على تقييمه الأخلاقي لنفسه[٢].

وقد بنى « كانط » فلسفته الأخلاقية عبر البحث في تصور مفهوم الإرادة الخيرة في ذاتها، فالإرادة الخيرة لا ترتبط بميل أو منفعة، ولكنها مستقلة استقلالًا تامًّا عن كل منفعة أو ميل، فهي كما يقول: «تلمع بذاتها لمعان الجوهر، مثل شيء يحتفظ في نفسه بكل قيمته»[٣].

يتضح هذا من القضيتين: الأولى والثانية من قضايا الإرادة الخيرة، وهما:

القضية الأولى: «إن الإرادة الخيرة ليست خيرًا بسبب ما تحدثه من آثار أو تحققه من أهداف، ولا بسبب جدارتها أو صلاحيتها لتحقيق بعض الأهداف النهائية، ولكن تكون كذلك من خلال فعل الإرادة فحسب؛ أي هي خير في ذاتها، و إذا كنا نعدها كذلك، فينبغي أن نُقيمها تقييمًا يرتقى بها عاليًا عن كل ما يمكن أن يكون من شأنه أن يتحقق من خلالها من استحسان أو محاباة أو عطف أو تحيز لأى ميل من الميول أيًّا كانت، ولا حتى لمصلحة الميول كلها مجتمعة»[٤].

أمَّا القضية الثانية فمؤداها كما يقول « كانط »: «إن الفعل الذى يتولد عن الإحساس بالواجب لا يستمد قيمته الخلقية Moral Worth من الغرض أو الهدف الذى يسعى إلى تحقيقه من وراء ذلك الفعل، ولكن بالأحرى تتوقف قيمته الخلقية على القاعدة أو المسلَّمة Maxim

(1) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, pp.4-5.

(2) Nagel, Thomas: Moral Luck, In: «Mortal Questions», Cambridge University Press, Cambridge, 1979, p. 24.

(٣) كانت، إمانويل: تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ترجمه وقدم له وعلق عليه د. عبد الغفار مكاوي، راجع الترجمة د. عبد الرحمن بدوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ١٩.

(4) Kant, Immanuel: Groundwork for The Metaphysics of Moral, Translated and Edited by; Mary Gregor and Christine M. Korsgaard, Cambridge University Press, Cambridge, 1998, p.8.

التي يـؤدي المرء بمقتضاها واجبه أيًّا كـان هذا الواجب، فقيمته الخلقية لا تتوقف على واقعية موضوع الفعل، بـل تعتمد على مبدأ الإرادة الذى حـدث الفعل بمقتضاه، دون أي اعتبار لملكة الرغبة أو الشهوة Faculty of Desire»[١].

نسـتنتج من القضيتين السابقتين أن الأهداف والميول والمنافع التي تكون لدينا عند القيام ببعـض الأفعـال والآثار التي تنتـج عنها، بوصفها غايـات ودوافع محركة لـلإرادة، لا يمكن أن تعطى لهذه الأفعال أيَّة قيمة خُلقية على الإطلاق. وهذا يعني أن الأخلاق عند « كانط » محصنة ضد الحظ؛ والسـبب في ذلك أن الأخلاق ترتكز على افتراض مهم، وهو أن الأشخاص فاعلون مسـتقلون ذاتيًّـا وقادرون على اتخاذ قـرارات عقلانية، وأن التقييم الأخلاقـي يكون على هذا الأساس وليس على أساس الحظ[٢].

وقـد تأثر معظم فلاسـفة الكانطية الجديدة بـ» كانط »، فعلى سـبيل المثـال لا يقيم معظم هـؤلاء الصـواب والخطأ الأخلاقي بناء عـلى قصد الفاعل، ولا يعطون وزنًـا إلى لآثار تصرفات الفاعل، ولا للظروف التي يجدون أنفسهم فيها، ولا لمواهبهم الطبيعية Natural Gifts أو حتى سماتهم الشخصية؛ وهذا يعني أنهم لا يعطون أي وزن أخلاقي لأي نوع من أنواع الحظ[٣].

وهكـذا، يرى معظم أنصار الكانطية الجدد أن الحـظ الأخلاقي متناقض Oxymoronic، ويمكـن النظر في حديث « كانط » عـن الإرادة الخيِّرة... وغالبًا ما يتـم تطاير الحظ الأخلاقي في مواجهة هذا الجانب من نظرية « كانط » الأخلاقية؛ لأنه يرى أن الشيء الوحيد الخيِّر المؤهل هو الإرادة الخيِّرة؛ لذلك فالوضع الأخلاقي للفاعل لا يعتمد إلا على إرادته، وبالتالي يعتمد على ثوابت مسلمة الفعل Maxims of Action التي تحرك سلوكه، والمسلمة هي التعبيرات الأساسية لإرادته، واستبعاد الميول لتحديد القيمة الأخلاقية للفاعل، فلا يهم كيف يحدد العالم الظروف التي يتصرف بها، ولا يهم ما إذا كان غير قادر على تحقيق النتائج التي يستهدفها، طالما أنه يجهد في تحقيق نيته بكل الوسائل المشروعة أخلاقيًّا التي تخضع لسيطرته و إرادته[٤].

(1) Ibid, p.15.

(2) Woodford, F. Nicole: Moral Luck, Control, Choice, and Virtue, Op.Cit, p.3.

(3) Beach, A. Patrick: Moral Luck, Ph.D., The Graduate School, Syracuse University, United States, ProQuest, (June., 2012), p.101.

(4) Ibid, pp.101-102.

وطبقًا لهذا، فالأخلاقية Morality عند «كانط» محصنة من الحظ؛ بسبب كيفية فعل هذه العوامل معًا، فهي محصنة من الداخل؛ لأن التقييم الأخلاقي يقتصر فحسب على ما يمكن للفاعل التحكم فيه، ومحصنة من الخارج؛ لأنه لا يوجد مجال تقييم آخر يكون فيه للحظ أي تأثير يمكن أن يتفوق على التقييم الأخلاقي، وبالتالي فالسماح للحظ بالتأثير على القيمة الأخلاقية. وبطريقة أخرى، فإن العامل الأول يعزل الأخلاق عن التأثير المباشر للحظ من خلال تجاهل العوامل السببية في إجراء التقييمات الأخلاقية، والعامل الثاني يعزل الأخلاق عن التأثير غير المباشر للحظ من خلال عدم إخضاع الأخلاق مطلقًا لأي مجال يكون للحظ فيه تأثير مباشر[١].

ويرتبط مبدأ السيطرة بعلاقة وثيقة بمفهوم المسئولية الأخلاقية، وهذا ما بينه «زيمرمان» في مقالة «الحظ والمسئولية الأخلاقية» عام ١٩٨٧م؛ حيث صاغ هذه العلاقة على النحو الآتي:

١- الشخص {أ} مسئول أخلاقيًّا عن الحدث {ب}، والحدث {ب} يحدث فقط إذا كان حدوثه ليس مسألة حظ.

٢- عدم ارتباط الحدث بمسألة الحظ، يعني أن الشخص {أ} مسئول مسئولية أخلاقية عن حدوثه[٢].

وهذا يعني، إذا كان الشخص مسئولًا عن بعض الأحداث؛ فإنه يستحق الثناء أو اللوم على هذه الأحداث، وهذا الثناء أو اللوم يُشكل تقييمًا إيجابيًّا أو سلبيًّا للفاعل في ضوء الحدث المعني[٣].

وبناء على ما سبق، فإنه يتم تحديد المسئولية الأخلاقية في ضوء نطاق سيطرة الفاعل، وهذا متفق تمامًا مع مبدأ السيطرة الذي صاغه «دانا نيلكين» Dana Nelkin قائلًا: «نحن مُقيَّمون أخلاقيًّا فقط إلى الحد الذي يعتمد فيه ما يتم تقييمنا عليه على عوامل خاضعة لسيطرتنا»[٤].

وعلى هذا، يكون الفاعل {أ} مسئولًا من الناحية الأخلاقية عن بعض أفعاله أو نيته

(1) Ibid, p.104.

(2) Zimmerman, J. Michael: Luck and Moral Responsibility, Ethics, Vol.97, No.2, The University Chicago Press, Chicago, (Jan., 1987), p.374.

(3) Ibid, p.375.

(4) Beach, A. Patrick: Moral Luck, Op.Cit, p.106.

أو سماته الشخصية {ب}، إذا كان {أ} هو موضوع مؤهل لمجال من المواقف التفاعلية للمشاركين، مثل: الثناء واللوم والغضب والندم والإثم، وما إلى ذلك، لـ{ب}، وهو بذلك يكون مسئولًا أخلاقيًّا بوصفه قابلًا للمساءلة(١).

ويعتقد «أرسطو» في «الأخلاق النيقوماخية» أن هناك شرطين مطلوبين للمسئولية الأخلاقية؛ هما:

١- أن يكون الفعل أو النية أو سمة الشخصية خاضعة لسيطرة الفاعل(٢). يقول «أرسطو» في «الأخلاق النيقوماخية»: «فالفعل الإرادي يظهر أنه هو الفعل الذي أصله في ذات الفاعل، فهو يعرف جميع الشروط في الأوضاع التي وقع بها فعله»(٣).

٢- ألا يتصرف الفاعل من نطاق مجال جهالة غير محسوبة؛ وبالتالي فإذا كانت لدى الفاعل رقاقة Microchip في دماغه يتحكم من خلالها العلماء في سلوكه، فإننا نسحب الادعاء بأنه مسئول عن سلوكه. بالإضافة إلى ذلك إذا تصرف الفاعل بسبب أنواع معينة من الجهل Ignorance، فسوف نتخلى عن المطالبة بالمسئولية الأخلاقية، كما يشير «برايان روزيبري»«Brian Rosebury» بقوله: إن المسئولية الأخلاقية لا تكون بالجهل بالحقائق ذات الصلة المحيطة بأفعال الشخص أو نتائج أفعاله(٤).

وقد أكد «أرسطو» على هذا الأمر قائلًا: «قد يظن بالأشياء التي... تكون قسرًا أو جهلًا من فاعليها أنها تكون كرها، والشيء الذي يكون كرهًا هو الذي مبدؤه الذي يفعله يكون من خارج وليس للفاعل وللمنفعل معونة عليه، مثل أن تحمل الريح إنسانًا من مكان إلى مكان، وهو في ذلك غير مالكٍ لنفسه»(٥).

فهناك أفعالُ تتم قسرًا وأفعالُ تتم جهلًا كما يرى «أرسطو»، وكلها أفعال غير إرادية،

(1) Ibid, p.77.

(2) Ibid.

(٣) أرسطو طاليس: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمه من اليونانية إلى الفرنسية وقدم له وعلق عليه: بارتلمي سانتهلير، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد، جـ ١، الكتاب الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م، ص ٢٧٣.

(4) Beach, A. Patrick: Moral Luck, Op.Cit, p.78.

(٥) أرسطو طاليس: الأخلاق، ترجمة: إسحق بن حنين، حققه وشرحه وقدم له د. عبد الرحمن بدوي، سلسلة الذخائر (١٦١)، تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ١٠٦.

ويقول في هذا: «يمكن أن تعد لا إرادية جميع الأشياء التي تقع بقوة قاهرة أو بجهل، والشيء الذي يقع بالقوة القاهرة هو الذي تكون علته خارجية ومن طبيعة ما كان الكائن الذي يفعل أو الذي يقبل ليساعده في شيء»(١).

أمَّا الأفعال التي تكون بسبب الجهل، ففي الحق أن كل ما فيها يقع دون أن تشاطر فيه إرادتنا، ولكنه لا شيء في الواقع ضد إرادتنا إلا ما يسبب لنا ألمًا وندمًا؛ فالإنسان الذي فعل شيئًا دون أن يعرف ما كان يفعل، ولكنه لم يشعر بألم عقب فعله فلا شك أنه لم يفعله في الاختيار، طالما أنه لم يكن يعرف ماذا كان عمله، ولكنه لا يمكن أن يقال أيضًا إنه فعل ضد إرادته طالما أنه لم ينتج عن فعله ألم له(٢). ويعني «أرسطو» بالجهل: «هو الجهل الخاص بالأشياء وفي الأشياء التي عليها ينطبق الفعل المراد تقديره»(٣).

ويشير «زيمرمان» قائلًا: «إن معظم الفلاسفة يدعون أن المسئولية الأخلاقية محصنة ضد الحظ؛ لأنه لا يمكن أن يكون المرء مسئولًا عن شيء ما لم يكن تحت سيطرته بطريقة ما وإلى حدٍّ ما»(٤). ولجأ «زيمرمان» إلى فكرة الظلم Unfairness من أجل الدفاع عن المسئولية الأخلاقية، قائلًا: «من الظلم تحميل شخص ما المسئولية الأخلاقية عن شيء ليس تحت سيطرته»(٥).

فمن الظلم الاعتقاد أن شخصًا ما جدير بالثناء أو اللوم على الأحداث التي تقع خارج حدود سيطرته؛ فعلى سبيل المثال، عادةً ما يتم إلقاء اللوم على الشخص الذي اصطدم بسيارته بأحد المباني، وتسبب في حدوث حادث، ومع ذلك يتم التراجع عن هذا اللوم إذا اُكتشف لاحقًا أن سبب الحادث كان نتيجة لسائق يعاني من قصور في القلب(٦).

يشير «باتريك بيتش» إلى أن المسئولية الأخلاقية تنبع من الفهم التحرري للإرادة الحرة، بحيث يكون الفاعل حرًّا إذا كان يمتلك مجموعة من الخيارات الحية Live Options والقدرة

(١) أرسطو طاليس: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، مصدر سابق، ص ٢٦٦.
(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٠.
(٣) المصدر السابق، ص ٢٧١.
(4) Zimmerman, J. Michael: Moral Luck, A Partial Map, Op.Cit, p.590.
(5) Ibid, p.590.
(6) Woodford, F. Nicole: Moral Luck, Control, Choice, and Virtue, Op.Cit, p.4.

على الاختيار من بينها، وهذه الإرادة الحرة التحررية تنبع من امتلاك بعض الخصائص الجوهرية، وهي:

١- بعض القدرات المعرفية Cognitive Capacities.

٢- مجموعة من القدرات العاطفية Emotional Capacities.

٣- القدرة على أن تحفزها اعتبارات أخرى.

٤- بنية الإرادة تتضمن ترتيبا أوليًّا ورغبات من الدرجة الثانية على الأقل.

٥- قدرة قوية Robust Capacity للاختيار بين مسارات الفعل المختلفة(١).

فالمسئولية الأخلاقية - كما يوضح «جويل فاينبرج» Joel Feinberg (١٩٢٦-٢٠٠٤م)- تقتصر على العالم الداخلي للعقل، وفي هذا يقول: «إذا كان هناك رجل عقلاني وفيلسوف، فسوف يدرك أن المسئولية الأخلاقية الناتجة عن الضرر الخارجي لا معنى لها، وأن المسئولية الأخلاقية تقتصر فحسب على العالم الداخلي للعقل Inner World of the Mind، بحيث تسيطر قواعد الفاعل العليا Agent Rules Supreme، وليس للحظ أي مكان أو دور»(٢).

فالمبادئ الأخلاقية -عنده- تشكل نوعًا من القانون الداخلي Internal Law الذي يحكم على الأفكار الداخلية وقوة الإرادات Inner Thoughts and Volitions التي تخضع تمامًا لسيطرة الفاعل، وهي تشكل محكمة الضمير أو الميدان الداخلي The Forum Internum(٣).

يضيف «زيمرمان» قائلًا: «إن حرية القرار أمر حاسم في إسناد المسئولية الأخلاقية للفاعل، وبالتالي إسناد الثناء واللوم،... فأنا مثل «كانط» أعتقد أن مفهومنا للمسئولية الأخلاقية يتطلب منا تحييد دور الحظ، وتحميل الفرد المسئولية الأخلاقية عن كل الأحداث»(٤).

ويشير «مايكل سلوت» Michael Slote (١٩٤١م-) أن النظريات المستندة إلى الفاعل أكثر جذرية ونقاءً من غيرها؛ لأن تقييم الأفعال يعتمد بالكامل على ما يجب أن نقوله أخلاقيًّا

(1) Beach, A. Patrick: Moral Luck, Op.Cit, p.172.

(2) Feinberg, Joel: Doing and Deserving; Essays in the Theory of Responsibility, Princeton, New Jersey, Princeton University Press, 1970, p.33.

(3) Ibid, p.33.

(4) Zimmerman, J. Michael: Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, pp.385-386.

عـن الحياة الداخلية للفاعلين الذين يؤدون هذه الأفعـال، والأهم من ذلك أن الحالة الأخلاقية للأفعـال تعتمد كليًّا على الحالة الأخلاقية لدوافع الفاعـل Agent's Motives، وكل ما يجب أن نقوله عن الحياة الداخلية للفاعلين[١].

وقد حاول «سلوت» حل مشكلة الحظ الأخلاقي وتجنبها من خلال إسقاط أخلاق الحس المشترك Common-sense Morality؛ حيث يرى أنه من الممكن الإعجاب بالأشخاص بسبب ما نعتبره خارج عن سيطرتهم، وأنهم يخضعون فيه للحظ، مثل: مظهرهم وموهبتهم ومزاجهم الهادئ، ويمكن أن نشـجب غباء شـخص مـا أو مزاجه الحاد حتى مع اعتبار أن هذه الأشـياء خارجة إلى حد ما عن سيطرة الأفراد. إن فكرة ما يثير الإعجاب أو شجب الأشخاص - الذين يتعرضون للحظ- ليسـت فكرة سـيئة بالطريقة نفسـها التي تكون بها فكرة الحظ الأخلاقي على وجه التحديد مسـيئة؛ لأن الإعجاب والشـجب الذي ذُكر للتو لا يُلزمنا بأحكام أخلاقية محددة، وبالتالي يمكن تجنب مشـكلة الحظ الأخلاقي إذا أسقطنا أخلاق الحس المشترك، وذلك بأن تسـتند أحكامنـا الأخلاقية بأكملها إلى أفكارنا حول ما هـو مثير للإعجاب Admirable، أو ما يبعث على الأسى حول البشر وأفعالهم[٢].

المحور الثاني: تعريف الحظ الأخلاقي ومفارقته للمسئولية

يـؤدي الحظ دورًا كبيرًا في حيـاة كل فرد منا، أكثر مما نتصور؛ فكثيرًا ما نصف الآخرين بأنهم محظوظون أو غير محظوظين.

فالحـظ هو صدفة جيـدة أو سـيئة Fortune Good and Ill، والصدفة الجيدة هي عنصر إيجـابي، مثل النجاح والرخـاء Prosperity والميـزة Advantage التي تأتي عـن طريق الصدفة Chance، وليسـت ناتجـة عن الجـدارة Merit أو الجهـد Effort، والصدفة السـيئة هي عنصر سلبي، مثل الفشل والفقر والمساوئ التي تنجم عن تأثير الصدفة في حياتنا[٣].

(1) Athanassoulis, Nafsika: Common-sense Virtue Ethics and Moral Luck, Ethical Theory and Moral Practice, Vol.8, No.3, Springer, (Jun., 2005), p.267.

(2) Slote, Michael: Virtue Ethics, Utilitarianism and Symmetry, In: How Should One Live? Essays on The Virtues, Ed By; Roger Crisp, Oxford University Press, Oxford Scholarship Online, 2003, p.78.

(3) Beach, A. Patrick: Moral Luck, Op.Cit, p.17.

يتوافق هذا التعريف مع القضايا الفلسفية المركزية حول مفهوم الحظ، وهناك على الأقل قضيتان أساسيتان تتعلقان بهذا التعريف وتأثيره على السياقات الفلسفية، وهما:

أولاهما: أن هذا التعريف لا يخبر عما إذا كانت الصدفة المعنية ذاتية أو موضوعية؛ أي ما إذا كان الحظ هو مقولة معرفية أو مقولة ميتافيزيقية.

وثانيتهما: هناك تتناقض بين الصدفة التي تأتي عن طريق الحظ والصدفة التي تنتج عن طريق الجدارة أو الجهد؛ لذلك فهذا التعريف يستبعد إمكانية أن يكون الفاعل فيما يتعلق بالحدث نفسه محظوظًا أو جديرًا بالتقدير، وبالتالي فإن الحظ والجدارة يستبعد كل منهما الآخر.

يظهر هذا الأمر في مناقشات الحظ الأخلاقي، فمثلًا سلوك سائق في حالة سكر يلحق ضررًا بآخر أسوأ من سلوك سائق آخر يقود بالحالة نفسها، ولكنه يفلت من العقاب، ولا يضر أحدًا؛ فكلاهما يستحق اللوم Blameworthy على تعريض حياة الآخرين للخطر والمجازفة، ولكن السؤال هو: هل السائق سيئ الحظ يستحق اللوم على شيء آخر أو لا؟ وهل يمكن للحظ أن يزيد من الحالة الأخلاقية للفاعل أو يقللها؟ وهل ترجع حالة السائق في هذا الموقف إلى الجدارة أو الصدفة؟[١].

يشير «مايكل سلوت» قائلًا: «لو كان هناك شيء مثل الحظ، فإن الصفات الأخلاقية، ولا سيما مدى استحقاق المرء للثناء أو اللوم سواء لذاته أو لأفعاله، تعتمد على عوامل عرضية خارجة عن إرادته أو لا يعرفها ken»[٢].

وتكمن مشكلة الحظ الأساسية في النقاط الآتية:

١- الفاعلون غير مسئولين أخلاقيًّا -أحيانًا- عن أفعالهم ونواياهم وسماتهم الشخصية.

٢- عدم وجود أي فعل أو نية أو سمة شخصية ضمن نطاق سيطرة الفاعلين.

٣- يترتب على هذا، أن الفاعلين -أحيانًا- مسئولون أخلاقيًّا عن الأفعال والنوايا والسمات الشخصية التي ليست ضمن نطاق سيطرتهم[٣].

(1) Ibid, pp.17-18.

(2) Slote, Michael: The Problem of Moral Luck, Philosophical Topics, Vol.22, No.1 & 2, University of Arkansas Press, United State, (Spring and Fall., 1994), p.397.

(3) Beach, A. Patrick: Moral Luck, Op.Cit, p.106.

يميز «زيمرمان» بين طريقتين فيما يتعلق بسيطرة المرء على الحدث، وهما:

أولاهما: أنه يمكن القول أن المرء يتمتع بسيطرة محدودة أو مقيدة Restricted Control فيما يتعلق بحدث ما فقط في حالة ما إذا كان بوسع المرء أن يؤدي إلى حدوثه أو منع حدوثه.

وثانيتهما: أنه يمكن القول أن المرء يتمتع بسيطرة غير محدودة فيما يتعلق بحدث ما فقط في حالة ما إذا كان المرء يتمتع بسيطرة محدودة فيما يتعلق بالحدث وبكل الأحداث التي يتوقف حدوثها عليه.

ويمكن صياغة الحجة الأولى والثانية على النحو الآتي:

أولاً:

١- الشخص { أ } مسئول أخلاقيًّا عن حدوث { ب }، فقط إذا كان { أ } يمتلك سيطرة محدودة على { ب }.

٢- عدم وقوع الحدث، يعني أن الشخص يخضع لسيطرة مقيدة على الحدث.

٣- لذلك لا يوجد الحدث الذي يجعل { أ } مسئولًا أخلاقيًّا عن حدوثه.

ثانيًا:

١- الشخص { أ } مسئول أخلاقيًّا عن حدوث { ب }، فقط إذا كان { أ } يمتلك سيطرة غير مقيدة على { ب }.

٢- عدم وجود حدث يعني أن الشخص يمتلك سيطرة غير محدودة على الحدث.

٣- لذلك لا يوجد الحدث الذي يجعل { أ } مسئولًا أخلاقيًّا عن حدوثه[١].

ولكن، متى يحدث الحظ الأخلاقي؟

يحدث الحظ الأخلاقي عند إجراء تقييمات أخلاقية بشكل ملائم حول الفاعلين على أساس الأفعال والغفلات Omissions، ونتائجهما التي تقع خارج سيطرة الفاعل، وتنطوي حالات الحظ على نتائج جيدة أو سيئة فيما يتعلق بالمكاسب والخسائر أو المزايا والمساوئ... إلخ[٢].

(1) Zimmerman, J. Michael: Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, pp.376-377.

(2) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, p.6.

ولكن يجب أن نميز بين حالات الحظ العادية وحالات الحظ الأخلاقي؛ فحالات الحظ العادية هي معتقد خرافي وليس مسألة حظ، فمثلًا عندما يدعي أخي أنه من حسن حظه أن يرتدي زوجًا من الجوارب القذرة، وهو الزوج نفسه الذي ارتداه خلال المباراة الأخيرة التي فاز بها فريقه في لعبة كرة القدم؛ فهذه الجوارب لا تمتلك أية خصائص محظوظة بفضل ارتدائها في لعبة قد تحقق الفوز فيها سابقًا، ولن تحقق النصر في المباراة القادمة؛ فعلى الرغم من أن هذه الحالة تعبر -غالبًا- عن حالة حظ، إلا أنها تعبر عن حالة معتقد خرافي وليس مسألة حظ، و إذا كانت كذلك فهي حالة حظ خاطئة أو سيئة Misidentified Luck، فإذا فاز أخي باللعبة، فقد يكون ذلك -بالطبع- نتيجة للحظ وليس للموهبة، ولكن الحظ لا يقيم في الجوارب ولا يمتلكها. إن الادعاء بأنه كان محظوظًا بالفوز بالمباراة قد يكون حقيقيًّا، لكن الادعاء بأن حظه جيد في هذه الحالة نتيجة لارتدائه الجوارب، ليس هو ما يقصد بالحظ[(١)].

فما الذي يميز حالات الحظ الأخلاقي عن حالات الحظ العادية؟ لكي تكون حالة الحظ حالة حظ أخلاقي، يجب أن تنطوي على بعض الحكم بالمسئولية الأخلاقية، أو بعض العزو إلى الثناء الأخلاقي أو اللوم Moral Praise or Blame، فالسحابة التي تظهر أثناء مرور المارة ليست مثالًا على الحظ؛ لأنها صدفة بالفعل، وحدث مختلف عن الحظ الأخلاقي؛ لذلك فالفاعلون يقفون في علاقة محددة مع حالات الحظ وهي علاقة أكثر تعقيدًا[(٢)].

وهذا ما يشير إليه «زيمرمان» قائلًا: «إذا كان شخص ما مسئولًا عن حدث ما؛ فإنه يستحق الثناء أو اللوم على هذا الحدث، والثناء واللوم هما من نوع محدد وغير فعال، و يتألف من تقييم إيجابي أو سلبي للفاعل في ضوء الحدث المعني. و يستحق الفاعل مثل هذا الثناء أو اللوم فقط في حالة أن يكون تقييمه دقيقًا وصادقًا مع الوقائع، ولكن من المهم هنا أن نلاحظ أن هذا الثناء واللوم ليسا أقوالًا؛ بل هي مجرد أحكام بشأن المكانة الأخلاقية للشخص أو جدارته الأخلاقية في ضوء الحدث المعني، وهذه الأحكام غير خاضعة للتبرير الأخلاقي، بل خاضعة للتبرير المعرفي»[(٣)].

(1) Ibid, p.6.

(2) Ibid.

(3) Zimmerman, J. Michael: Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, p.375.

نستنتج من هذا، أن الحظ الأخلاقي يحدث عند إجراء تقييمات ملائمة حول الفاعلين، على الرغم من أن جزءًا كبيرًا مما يتم تقييمه يعتمد على عوامل خارجة عن سيطرة الفاعل(١).

ومعنى هذا أنه لا أحد مسئول عن أي شيء على الإطلاق، حيث تختفي القدرة، والمسئولية هي نوع من الوهم المعرفي Cognitive Illusion(٢).

وقد أوضح «ناجل» هذه الإشكالية، قائلًا: «تتطور المشكلة من الظروف العادية للحكم الأخلاقي، وقبل أي شيء فمن المعقول حدسيًّا ألا يتم تقييم الأشخاص بشكل أخلاقي بسبب ما لم يخطئوه، أو بسبب ما لم يرتكبوه من ذنب أو إثم Fault، أو بسبب عوامل خارجة عن سيطرتهم»(٣).

ثم فرق «ناجل» بين نوعين من أنواع الحكم، أولهما الحكم الذي نطلق فيه على الأشخاص أنهم سيئون، وثانيهما وصف ما حدث لهم بأنه شيء سيء، ويوضح هذا قائلًا: «يختلف الحكم عند تقييم شيء ما بوصفه شيئًا جيدًا أو سيئًا أو عند وصف حالة من الأمور، ولكن عندما نلقي اللوم على شخص ما على أفعاله؛ فإننا لا نقول فقط بأنه أمر سيئ حدوثه، بل نحكم عليه ونقول إنه شخص سيئ، وهذا الأمر مختلف عن كونه شيئًا سيئًا A bad Thing»(٤).

ويرى «ناجل» أن فقدان السيطرة الناتج عن الحركة اللاإرادية أو القوة الجسمانية Physical Force أو الجهل بالظروف، يعفي ما يتم من الحكم الأخلاقي؛ لأن ما نقوم به يعتمد بعدة طرق على ما لا يقع تحت سيطرتنا-ما لا ينتج عن الإرادة الخيرة أو السيئة بتعبير كانط-، والتأثيرات الخارجية في هذا النطاق ليست كذلك، فيعتقد عادةً أنها تعفي ما يتم من الحكم الأخلاقي سواء أكان إيجابيًّا أم سلبيًّا(٥).

ثم يعرف «ناجل» الحظ الأخلاقي قائلًا: «إن جانبًا مهمًّا مما يفعله الأشخاص يعتمد -في بعض الأحيان- على عوامل خارجة عن سيطرتهم، ومع ذلك نستمر في معاملتهم في هذا

(1) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, p.7.

(2) Shook, R. John (Ed and Others): The Dictionary of Modern American Philosophers, Vol.3, Thoemmes Continuum, Bristol, England, 2005, p.1792.

(3) Nagel, Thomas: Moral Luck, Op.Cit, p.25.

(4) Ibid.

(5) Ibid.

الصدد بوصفهم موضوعات للحكم الأخلاقي، وهذا ما نطلق عليه الحظ الأخلاقي، ومثل هذا الحظ قد يكون جيدًا أو سيئًا[١].

ويشير «ناجل» إذا كانت الإرادة الخيرة -عند كانط- مثل الجوهرة Jewel-like تُطلَب لذاتها، فإن هناك فرقًا مهمًّا من الناحية الأخلاقية بين إنقاذ شخص من مبني محترق، وإسقاطه من نافذة الطابق الثاني عشر أثناء محاولة إنقاذه، وبالمثل هناك فرق كبير من الناحية الأخلاقية بين القيادة المتهورة والقتل الخطأ. لكن ماذا لو كان السائق المتهور يدهس أحد المارة أثناء وجودهم في النقطة المرورية التي بها الضوء الأحمر؟[٢].

ثم يبين «ناجل» أن تطبيق شروط السيطرة باستمرار يهدد بتأكل معظم التقييمات الأخلاقية التي نجد أنه من الطبيعي القيام بها؛ لأنه يتم تحديد الأشياء التي يُحكم على الناس من خلالها بشكل أخلاقي بطريقة أكثر مما ندركه في البداية من خلال ما هو أبعد عن سيطرتهم. ويهاجم حالة السيطرة قائلًا: «في نهاية المطاف، لا شيء -تقريبًا- تحت سيطرة الشخص، فماذا نستنتج؟ إذن، حالة السيطرة حالة خاطئة؛ فهي فرضية معقولة في البداية، ثم تم تفنيدها بأمثلة مضادة وواضحة»[٣].

تخيل -مثلًا- حالة تتعلق بسائق شاحنة يدهس طفلًا على الطريق؛ فإذا لم يقم السائق بأي خطأ، فسيشعر بالفزع حيال تورطه في الحادث، ولكن لا ينبغي -ولا يتوقع منه- أن يلوم نفسه على وفاة الطفل، وهذا مثال واضح على ندم الفاعل A gent-regret، ولكنه لا يعبر عن حالة من سوء الحظ الأخلاقي. ولكن إذا كان السائق مذنبًا بدرجة من الإهمال أو الغفلة، حيث أهمل في فحص مكابح السيارة قبل أن يصطدم بالطفل، وأسهم هذا الإهمال في وفاة الطفل؛ فسوف يلوم نفسه على وفاة الطفل بدلًا من مجرد الشعور بالسوء Feel Bad. وما يجعل الحالة الأخيرة من الحالات الأخلاقية أنه سيتعين عليه أن يلوم نفسه ولو قليلًا على إهماله إذا لم تنشأ أي حالة تطلب منه الضغط على الفرامل بشكل مفاجئ لتجنب إصابة الطفل، يكون السائق مهملًا بالدرجة نفسها في كلتا الحالتين؛ ففي إحداهما يتسبب في وفاة الطفل وفي الأخرى لا، وفي كل من الحالتين يفتقر السائق إلى السيطرة على جانب مهم، فماذا لو كان الطفل هو الذي يجرى ويظهر بشكل مفاجئ أمام الشاحنة[٤].

(1) Ibid, p.26.

(2) Ibid, p.25.

(3) Ibid, p.26.

(4) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, p.7.

يـرى «برنارد ويليامـز» Bernard Williams (١٩٢٩-٢٠٠٣م) أن هنـاك اختلافًا بين ندم الفاعل والشـعور بالندم الذي يشعر به المشاهد، ولا يكمن هذا الاختلاف فحسب في الأفكار والصور التي تدخل للمشـاعر، ولكن هو اختلاف في التعبير Expression، فقد يتصرف سائق الشـاحنة بطريقة يأمل أن تشكل أو على الأقل ترمز إلى نوع من الإصلاحات أو التعويضات، وسـيكون هذا تعبـيرًا على ندم الفاعـل، أمَّا رغبة السـائق في إعطاء تعويضـات أو الاعتراف الـذي يجب أن يقدمه فلا يعبر دائمًا عن نـدم الفاعل؛ لأن الرغبة في تقديم تعويضات يمكن أن تقدم نفسها بمستويات مختلفة جدًّا من الأهمية في هذه العلاقات، فقد يدرك المرء الحاجة لدفع تعويضات عن الأضرار التي تسبب فيها بشكل لا إرادي، ومع ذلك فقد يكون هذا الاعتراف من النوع الخارجي المصحوب فقط بندمٍ من النوع العام(١).

يوضـح المثال سـابق الذكر، أن الحظ لا يؤثر فحسـب على التقييـمات الأخلاقية المتعلقة باللـوم والذنب، بل يؤدي أيضًا إلى المعاملة التفضيلية بين الفاعلين في المواقف المماثلة Similar Situations، ويمكـن توضيح ذلك من خلال مثال أكثر تفصيلًا، وهو القضية التي تنطوي على اثنـين من الرمـاة المحترفين اللذيـن يخطط كل منهما لاغتيـال محافظ بلد مـا، يُنظف القاتلان أسـلحتهما جيدًا، ويشـتريان رصاصًـا مثاليًا، ويدونـان توقعات الطقس من أجـل التصويب في يوم صافٍ برؤية عالية ورياح قليلة، ويبحثان في المباني القريبة من مكتب المحافظ؛ لاختيار نقطـة تمركـز مثالية على سـطح مبنى ذي موقع مثـالي، ويحصل القاتلان على قسـط من الراحة في الليلة السابقة على يوم الاغتيال، ويتناول كل منهما وجبة إفطار جيدة في صباح اليوم السابق لليلـة الاغتيال، ويصلان إلى موقعيهما على السـطح بوقـت كاف للإعداد والتجهيز قبل ظهور المحافظ في زاوية الشـارع. وهذا يعني أن كلا القاتلين خطط بشكل جيد وعلى قدم المساواة، وحاولا بالقدر نفسـه اغتيال المحافظ، وفي نهاية الأمر يفشل أحد القتلة في مهمته، بينما ينجح الآخـر في تنفيذ مخططه، والفـرق الوحيد بين القاتلين هـو أن الأول واجه بعض الحظ السيء، ممـا أدى إلى فشـل محاولته، أمَّـا القاتل الثاني فقد واجـه بعض الحظ الجيد الـذي أدى إلى نجاح محاولته(٢).

(1) Williams, Bernard: Moral Luck; Philosophical Papers 1973-1980, Cambridge University Press, Cambridge, 1981, p.28.

(2) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, p.7.

قدم «ناجل» مجموعة من الأمثلة -على ما يعتقد أنه- حظ أخلاقي، وهي:

١- إهمال سائق شاحنة في فحص المكابح بانتظام؛ مما يترتب عليه دهس طفل على الطريق (غير محظوظ).

٢- السائق المخمور الذي يصل إلى منزله بأمان، عندما لا يكون هناك مشاة في طريقه (محظوظ).

٣- القاتل المحترف الذي يفشل في قتل شخص ما بسبب مرور طائر يعترض طريق الرصاصة.

٤- الألماني الذي كان سيصبح ضابطًا نازيًّا ينتهي به المطاف إلى حياة هادئة عندما يهاجر إلى الأرجنتين، لأسباب تجارية قبل اندلاع الحرب[(١)]، وفي جميع هذا الحالات يدعي «ناجل» أن التقييمات الأخلاقية للفاعلين ستتوقف على عوامل خارجة عن سيطرتهم[(٢)].

وهناك أمثلة وحالات لا حصر لها تشير إلى الالتزام بالحظ الأخلاقي، وهي الحالات التي تعتمد فيها الأحكام الأخلاقية حول الفاعلين على عوامل خارجة عن سيطرتهم، فقد نلقي اللوم على فاعل ما بسبب بعض المواقف التي يملكها، على الرغم من عدم إدراكه لها، وأنه لم يفعل شيئًا بشأنها، ولم يفعل شيئًا للإبقاء عليها، وقد يكون لدى الفاعل القدرة على التخلص من هذه المواقف، إذا كان على دراية ووعي بها، وبهذا المعنى الأخير إذا امتلك الفاعل القدرة والوعي؛ فإنه يمتلك السيطرة على تلك المواقف، ولكن إذا لم يمتلك القدرة والوعي فوجود مثل هذه المواقف يعد مسألة حظ[(٣)].

قدم «ويليامز» لمفهوم الحظ الأخلاقي عام ١٩٧٦م من أجل إيصال فكرة معينة، وهي أن الحالة الأخلاقية هي إلى حدٍّ كبيرٍ مسألة حظ، فمثلًا يكبر «بوب» ويصبح شريرًا، ويكبر «توم» ويصبح فاضلًا؛ فهذا يعتمد إلى حدٍّ كبيرٍ على ظروف الأسرة والخلفية التعليمية. ثم وسع «ناجل» نطاق الحظ الأخلاقي، وموقفهما يتناقض بشكل صارم مع الرأي السائد

(1) Anderson, B. Mark: Moral Luck and Libertarianism, Ph.D., University of Wisconsin-Madison, ProQuest, 2012, p.1.

(2) Ibid, p.2.

(3) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, p.3.

في الفلسفة الأخلاقية على نطاق واسع، والذي يتأثر برأي «كانط»، وهو أن الشخص مسئول أخلاقيًّا فقط عما هو تحت سيطرته؛ وبالتالي فإن المسئولية الأخلاقية ليست مسألة حظ، فهذه الفكرة متأصلة بعمق في المفهوم الأخلاقي الحديث لدرجة أن رفضها سوف يستدعي إعادة التفكير وإعادة صياغة معظم المفاهيم الأخلاقية الأساسية[١].

يكمن اهتمام «ويليامز» الرئيس في كيفية تأثير الحظ في التقييم التأملي للفاعلين Agent's Reflective Assessment لأفعالهم؛ أي في قدرتهم على تبرير أفعالهم وقراراتهم بأنفسهم بشكل عقلاني، ويستخدم «ويليامز» مثال الرسام «غوغان»[٢] Gauguin، وهو الشخص الذي تخلى عن أسرته لمتابعة طموحاته الفنية والسفر إلى مدينة «تاهيتي»، حيث يرى «ويليامز» أن تبرير اختيار «غوغان» يعتمد على نجاح مخططه، ونجاح مخططه لا يخضع بالكامل لسيطرته، وبالتالي فهو جزئيًّا مسألة حظ. وهناك عائقان يعوقان قدرة الفاعل على ضمان التبرير الرجعي Retroactive Justification في مثل هذه القرارات؛ أولهما في وقت اتخاذ القرار، لا يمكن للفاعل أن يعرف أبدًا كيف ستنتهي هذه الأمور، وثانيهما في مخططات مثل قرار «غوغان»، غالبًا ما يغير المشروع شخصية الفاعل ومواقفه تمامًا[٣].

تشير الفيلسوفة البريطانية «سوزان هيرلي» Susan Hurler (١٩٥٤-٢٠٠٧م) إلى أن قبول مصطلح الحظ بكل بساطة يعني «العلاقة العكسية للمسئولية» The Inverse Correlate of Responsibility، بحيث تكون {س} مسألة حظ بالنسبة للشخص {ص}، فقط في حالة عدم وجود مسئولية أخلاقية فيما يتعلق بـ{س}[٤]. وهذا يعني أن علاقة عكسية بين وجود المسئولية والحظ؛ فوجود المسئولية ينفي حضور الحظ، ووجود الحظ ينفي وجود المسئولية، فكل منهما ينفي وجود الآخر.

---

(1) Statman, Daniel: Moral Luck, In: «Routledge Encyclopedia of Philosophy», General Editor: Edward Craig, Routledge, New York, 1998, p.390.

(٢) يصف «ويليامز» حالة «غوغان»، وهو فنان مبدع، ويدرك جيدًا مسئولياته الأخلاقية، ومع ذلك قرر التخلي عن عائلته والذهاب إلى مدينة «تاهيتي»؛ من أجل أن يصبح فنانًا مشهورًا، فإذا حدث ذلك وأصبح رسامًا عظيمًا، فلن يندم على قراره، ولكن إذا فشل، فيجب عليه أن يندم على ما فعله، لكن من حظه الجيد أن أصبح فنانًا عظيمًا.

(3) Statman, Daniel: Moral Luck, Op.Cit, p.390.

(4) Hurley, Susan: Luck, Responsibility and Natural Lottery, Journal of Political Philosophy, Vol.10, No.1, Wiley Online Library, 2002, pp.84-85.

And See Also: Anderson, B. Mark: Moral Luck and Libertarianism, Op.Cit, p.5.

يبدو مما سبق، أن هناك مفارقة بين الحظ والمسئولية الأخلاقية، ولحل هذه المفارقة يمكن أن نلاحظ أن تقييمنا الأخلاقي للأمثلة التي قدمها كل من «ويليامز» و«ناجل»، فيما يتعلق بالسائقين المخمورين، أحدهما محظوظ ينجح في الوصول إلى المنزل بسلام، والآخر سيئ الحظ يدهس طفلًا على الطريق، لا يتم عن طريق الرجوع إلى الوضع الأخلاقي المختلف للسائقين، ولكن إلى أوجه قصورنا المعرفية؛ لأننا في معظم الحالات لا نعرف شيئًا عن شخصيات الآخرين ونواياهم إلا من خلال سلوكهم الفعلي(١).

كما أن هناك مفارقة واضحة بين المسئولية والحظ، فإذا كانت طبيعة المسئولية تقتضي التعميم والإطلاق، فإن طبيعة الحظ تقتضي النسبية والتغير، فالحظ يختلف من شخص لآخر، لسببين:

أولهما: لكي يحدث شيء ما على سبيل الحظ فلابد أن يحدث خارج نطاق سيطرة شخص ما، وما هو خارج نطاق سيطرة هذا الشخص قد يكون خارج نطاق شخص آخر... وهكذا.

ثانيهما: قد يكون الحظ جيدًا أو سيئًا، وما هو حظ جيد لشخص ما قد يكون حظًّا سيئا لشخص آخر... وهكذا(٢).

فأحيانًا نكون محظوظين، وأحيانًا أخرى لا نكون كذلك، وفي بعض الأحيان قد نفعل شيئًا بحسن نية، ولكن يتضح أن ما فعلته كان له نتائج سيئة للغاية، ثم تشعر بأنه ينبغي عليك أن تفعل شيئًا آخر، وفي بعض الأوقات قد تمتنع عن الفعل بشكل ما؛ لأن فيه شكًّا أخلاقيًّا، ولكن يتضح فيما بعد أن ما لم تفعله ليس له أي نتائج سيئة(٣).

ويشير «ناجل» إلى أنه حتى معتقداتنا تكون دائمًا بسبب عوامل خارجة عن سيطرتنا، واستحالة تكوين هذه المعتقدات دون أن نكون تحت رحمة الآخرين، وهذا يقودنا إلى الشك فيما إذا كنا نعرف أي شيء على الإطلاق، فحتى لو كانت هذه المعتقدات صحيحة، فهي تخضع إلى الحظ البيولوجي المجرد Pure Biological Luck وليس إلى المعرفة. فالحظ الأخلاقي هو مثل هذا؛ لأن هناك العديد من العوامل التي تكون فيها الأشياء الطبيعية للتقييم الأخلاقي

(1) Statman, Daniel: Moral Luck, Op.Cit, p.391.

(2) Zimmerman, J. Michael: Moral Luck, A Partial Map, Op.Cit, p.585.

(3) Nida-Rumelin, Julian: There is no Moral Luck, Archives for Philosophy of Law and Social Philosophy, Vol.93, No.2, Franz Steiner Verlag, Germany, 2007, p.167.

خارجة عن سيطرتنا أو متأثرة بما هو خارج عن سيطرتنا، لا يمكن أن نفكر في هذه الحقائق دون أن نفقد قبضتنا على الأحكام(١).

إن قبول فكرة الحظ الأخلاقي له آثار كبيرة على النظرية الأخلاقية؛ حيث توفر لنا سببًا قويًّا للتخلي عن أخلاق الواجب واعتماد نوع من أخلاقيات الفضيلة؛ حيث يتم التركيز على السمات الخيرة والسيئة Good and Bad Traits للشخصية، بدلًا من التركيز على فكرة المسئولية واللوم(٢).

وقد رُفضت فكرة الحظ الأخلاقي من خلال ثلاث طرق، وهي على النحو الآتي:

أولاً: الحظ الأخلاقي هو مشكلة صياغة فلسفية؛ فعندما نصدر حكمًا أخلاقيًّا نفشل - في كثيرٍ من الأحيان- في فصل ما هو خارج عن سيطرة الفاعل الأخلاقي عما هو عليه.

ثانيًا: الحظ الأخلاقي هو مشكلة صياغة نفسية؛ أي لدينا تحيز نفسي ومحاباة مشابهة لتأثير هالة القداسة الأخلاقية «Moral «Halo، بأن إهمالنا الخاص لن يؤدي إلى النتائج السيئة نفسها مثل إهمال الأخرين، فلا ينبغي أن ندعي أن «غوغان» خائن أخلاقيًّا، و«فاجيلوس» Vagelos بطل أخلاقيًّا، ما لم نطبق باستمرار المعايير المصاغة نفسها في كل حالة على سلوكنا(٣).

ثالثًا: الحظ الأخلاقي مقولة خاطئة؛ لأن الهوية الشخصية بوصفها موضوعًا للحظ الأخلاقي تذهب بعيدًا جدًّا؛ وبذلك تعفي الأفراد من المسئولية عن شخصياتهم الخاصة، وهي خطوة تجعل المبادئ الأخلاقية غير مترابطة(٤).

المحور الثالث: أنواع الحظ الأخلاقي

هناك أربع طرق -تقريبًا- يخضع فيها التقييم الأخلاقي للحظ، وهي:

الطريقة الأولى: الحظ التأسيسي Constitutive Luck، وهو نوع الشخص الذي أنت

(1) Nagel, Thomas: Moral Luck, Op.Cit, pp.27-28.

(2) Statman, Daniel: Moral Luck, Op.Cit,p.391.

(3) Michaelson, Christopher: Moral Luck and Business Ethics, Journal of Business Ethics, Vol.83, No.4, Springer, (Dec., 2008), p.782.

(4) Ibid, p.782.

عليه؛ حيث لا يتعلق الأمر فقط بما تفعله بشكل قصدي، بل على ميولك Inclination، وقدراتك Capacities، ومزاجك Temperament[١].

فالحظ التأسيسي يؤثر على هوية المرء وميوله أو المواد الخام التي يولد بها...؛ فأمزجة الفرد من مواهب Talents وقدرات ونزعات Propensities تشكل جزءًا أساسيًّا من شخصية الشخص، ولا يمكن السيطرة عليها إلى حدٍّ كبيرٍ، فهكذا يولد بعض الأشخاص بنزوع نحو الصداقة والمودة والحساسية، في حين يميل الآخرون إلى قلة الصبر والحذر والخبث، ومع أن هذه سمات وراثية Inborn Traits، إلا أنها تمثل جزءًا من الحظ الأخلاقي، وعلى الرغم من ذلك فهناك العديد من العوامل الأخرى التي تؤثر على تكوين الأفراد أثناء نموهم[٢].

يؤكد الحظ التأسيسي على العوامل الداخلية للفاعل، وكذلك فإن هناك مجموعة من العوامل الخارجية التي تسهم في تشكيل سمات الشخصية، تسمى الحظ التطوري Developmental Luck؛ وهي مجموعة العوامل التي تؤثر على السمات الأخلاقية للمرء؛ فالآباء والأقرباء والمعلمون والعادات والمواقف المختلفة والعوامل البيئية كلها جوانب مهمة في تكوين الشخصية، ومع ذلك فإن توافرها خارج نطاق سيطرة الفرد[٣].

أمَّا **الطريقة الثانية** فهي الحظ في ظروف المرء Luck in One's Circumstances، وهو نوع المشاكل والمواقف التي يواجهها المرء[٤].

يقدم «ناجل» مثالًا على بعض الشباب الألمان الذين كانوا محظوظين أخلاقيًّا بعد مغادرتهم ألمانيا في أوائل الثلاثينيات، فلو استمروا بالبقاء لكانوا سيواجهون اختبارًا أخلاقيًّا فظيعًا وبشعًا، وربما يفشل الكثيرون منهم في هذا الاختبار؛ وبالتالي إذا ما أصبح الشخص قاتلًا نازيًّا أو لا هي -إلى حدٍّ كبيرٍ- مسألة حظ في الظروف[٥].

فالحظ المرتبط بظروف المرء يؤثر على أنواع المواقف التي نجد أنفسنا فيها، وغالبًا

(1) Nagel, Thomas: Moral Luck, Op.Cit, p.28.

(2) Hwang, Kyung-Sig: Moral Luck, Self-Cultivation, and Responsibility; The Confucian Conception of Free Will and Determinism, Philosophy East and West, Vol.63, No.1, University of Hawai'i Press, United State, (January., 2013), p.5.

(3) Ibid.

(4) Nagel, Thomas: Moral Luck, Op.Cit, p.28.

(5) Statman, Daniel: Moral Luck, Op.Cit, p.390.

مـا يكون أثنـاء مواجهة اختبارات أخلاقيـة معينة أو نواجه مواقف صعبـة؛ فمثلًا إذا كنت في موقف يسـمح لي بإنقاذ طفل من الغرق، وكنت خائفًا جدًّا من أسـماك القرش القريبة؛ لذا تصرفـت بجبن، ولم أنقذ الطفل، أو كنت منزعجًا من احتمال ابتلال ملابسي الجديدة وجعلها قـذرة ورطبة، فقد أكـون قد تصرفت بأنانية ولم أنقـذ الطفل. وربما لم أتـردد في إنقاذ الطفل الغارق، وواجهت خطر هجوم أسـماك القرش، وتلوث ملابسي الجديدة من أجل إنقاذ الطفل، وفي هذه الحالة أظهرت شجاعتي، وأنكرت نفسي؛ لذلك إذا لم أتعرض لهذا الموقف فلن تتاح لي الفرصة في إظهار جبني أو شجاعتي، ولن يتم تقييم سجلي الأخلاقي بشكل إيجابي أو سلبي[١].

يشـير «ناجـل» قائلًا: «إن الحظ في ظـروف المرء والأشـياء التي نقوم بهـا والاختبارات الأخلاقية التي نواجهها، يتم تحديده عن طريق عوامل خارجة عن إرادتنا، فقد يكون صحيحًا -بالنسـبة لشـخص في وضـع خطير- أن يتـصرف بطريقة جبانـة أو بطريقة شـجاعة، ولكن إذا لم يحدث هذا الوضع أو الحالة فلن يحصل على فرصة للتمييز بين جبنه وشجاعته، وسيكون سجله الأخلاقي مختلفًا»[٢].

والطريقة الثالثة هي الحظ المرتبط بأسـباب الفعل وتأثيراته The Causes and Effects؛ أي الحظ في كيفية تقييد المرء بظروف من خلال ظروف سابقة[٣].

فأفعال المرء محددة بالأحداث التي سـبقتها؛ لذلك لا يمكن اعتبار المرء مسئولًا عن أفعاله؛ لأن ما يفعله سيكون نتيجة لظروف سابقة، وهي تقع خارج نطاق سيطرته[٤].

أمَّا **الطريقة الرابعة** فهي الحظ المرتبط بالنتائج؛ أي الحظ في نتيجة أفعال الفرد ومخططاته. وهذا يشمل حالات القرارات التي اتُّخذت مع عدم اليقين Uncertainty، كما هو الحال عندما يقرر زعيم سياسي الدخول في حرب مع علمه بفشل مخططاته في أثناء اتخاذ القرار، فلن يكون القـرار مبررًا بأثر رجعـي، وحالات الغفلات والإهمال، مثل حالة سـائقين متهورين؛ أحدهما محظوظ، لا يسبب أي ضرر، والآخر سيئ الحظ، يصيب طفلًا يعبر الطريق[٥].

(1) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, pp.10-11.
(2) Nagel, Thomas: Moral Luck, Op.Cit, p.33.
(3) Ibid, p.28.
(4) Woodford, F. Nicole: Moral Luck, Control, Choice, and Virtue, Op.Cit, p.7.
(5) Statman, Daniel: Moral Luck, Op.Cit, p.390.

فالحظ في النتائج يشير إلى العوامل والمتغيرات الأساسية المرتبطة مباشرة بنتيجة فعل ما، فالحظ الأخلاقي قد يؤثر على نتائج الفعل، فقد لا تأتي النتائج على النحو المُعد له؛ بسبب عوامل خارجة عن سيطرة المرء(١).

تتضح هذه الأنواع أكثر من خلال حديث «ناجل» عن الحظ الجيد والحظ السيئ في الطرق التي تتغير بها الأمور: فمثلًا سائق الشاحنة الذي يصدم طفلًا عن طريق الخطأ، والفنان الذي يتخلى عن زوجته وأطفاله لتكريس نفسه للرسم، وغيرها من الحالات التي تكون فيها احتمالات النجاح والفشل أكبر.

فإذا كان السائق دون خطأ تمامًا، فسيشعر بشيء من الفزع بسبب دوره في الحدث، ولكنه لن يضطر إلى لوم نفسه وتأنيبها؛ لذلك فإن المثال على ندم الفاعل في هذه الحالة ليس حالة من حالات الحظ السيئ أخلاقيًّا Moral Bad Luck، ومع ذلك، فإذا كان السائق مذنبًا -ولو بدرجة بسيطة من الإهمال- مثلًا أهمل في فحص فرامل السيارة في الآونة الأخيرة، وأسهم هذا الإهمال في وفاة الطفل، فلن يشعر السائق بالفزع فحسب، بل سيلوم نفسه على وفاة الطفل. وما يجعل هذا مثالًا واضحًا على الحظ الأخلاقي أنه على السائق أن يلوم نفسه -ولو قليلًا- على الإهمال، إذا لم يكن هناك أي حالة تتطلب منه أن يُغير مساره فجأة. ومع ذلك، فإن الإهمال في كلتا الحالتين، ليس لدى السائق أي سيطرة على ما إذا كان الطفل سيمر بمساره أو لا(٢).

فيرجع الاختلاف بين نتائج أفعال الإهمال التي قام بها السائقان إلى وجود الطفل من عدمه، وهو أمر خارج عن سيطرة السائق تمامًا، إلا أن سائقًا أصبح مسئولًا عن وفاة الطفل، والسائق الآخر ليس كذلك(٣).

الشيء نفسه ينطبق على مستويات أخرى من الإهمال؛ فإذا كان هناك سائق سكران، ثم انحرفت سيارته إلى الرصيف؛ فسنعده محظوظًا من الناحية الأخلاقية إذا لم يكن هناك مارة في طريقه، ولكن إذا وُجدوا فسيكون مسئولًا عن وفاتهم، وقد يُحاكم بتهمة القتل الخطأ، ولكن إذا لم يؤذ أحدًا رغم طيشه وتهوره، فهو مذنب في هذه الحالة بارتكابه جريمة قانونية

(1) Hwang, Kyung-Sig: Moral Luck, Self-Cultivation, and Responsibility; The Confucian Conception of Free Will and Determinism, Op.Cit, p.5

(2) Nagel, Thomas: Moral Luck, Op.Cit, pp.28-29.

(3) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, p.8.

أقـل خطـورة بكثير من القتل الخطأ، والضرر الناشـئ سـواء لنفسـه أو الآخريـن أقل بكثير من القتل الخطأ[١].

ويتضـح ذلك مـن المثال القانوني التالي: إن عقوبة الـشروع في القتل أقل من عقوبة القتل العمـد، رغـم أن دوافـع القاتـل ونواياه واحـدة في الحالتـين، إلا أن درجة العقوبـة تعتمد على ما إذا كانت الضحية ترتدى سترة واقية من الرصاص أو لا، أو ما إذا كان طائرًا يطير في طريق الرصاصة أثناء إطلاقها، فكل هذه أمور خارجة عن سيطرة الفاعل[٢].

وهنـاك حالات مـن القرارات قد تنتج من خلال عدم اليقين؛ فمثـلًا ذهبت «آنا كارين» مع «فروتسكي»، وترك «غوغان» عائلته، ووقع «تشامبرلين» اتفاق «ميونيخ»،... إلخ، والمغزى من جميع هذه الحالات أن نعرف أن بعض القرارات تكون ممكنة في ضوء ما هو معروف في ذلك الوقت؛ الأمر الذي سيجعل اللوم غير مناسب دون النظر إلى كيفية ظهور هذه الأمور[٣].

ومـن الممكن -أيضًا- تقييم هذه القرارات من وجهة نظر ما يمكن معرفته في ذلك الوقت، ولكن هذه ليست نهاية القصة؛ فمثلًا إذا نجح الديسمبريون Decembrists الروس في إسقاط نيقـولا الأول عـام ١٨٢٥م مـن أجل إقامة نظام دسـتوري؛ فسـيكونون أبطالًا، وإذا فشـلوا؛ فسيدفعون ثمنًا باهظًا، وبالفعل تم إقرار عقوبات رهيبة للجنود الذين اتبعوه[٤].

فلا يمكن التنبؤ بالنتائج المحققة في عديدٍ من الاختيارات الصعبة؛ لذلك يجب أن ننظر إلى نـوع النتيجة أو الحصيلة Outcome النهائية؛ لأنها تحدد ما تم القيام به، فالنتائج الفعلية يمكن أن تؤثر على درجة اللوم أو الثناء في فئة كبيرة من القضايا الأخلاقية التي لا يمكن المسـاس بها، والتي تتراوح بين الإهمال إلى الاختيار السياسي.

يبـدو أن هذه أحكام أخلاقية أصيلة Genuine، وليسـت تعبـيرات عن الموقف المؤقت، ويتضـح هذا من حقيقـة أنه يمكن للمرء أن يقول مقدمًا كيف سـيعتمد الحكم الأخلاقي على النتائـج؟ فمثلًا إذا أهمل المرء، وترك صنبور المـاء مفتوحًا في الحمام مع وجود طفل صغير، فإن فعـل المرء في هذه الحالة يُعد فعلًا مروعًـا؛ أمَّا إذا لم يكن هناك طفل في المنزل، فهذا يعد مجرد

(1) Nagel, Thomas: Moral Luck, Op.Cit, p.29.
(2) Ibid.
(3) Ibid.
(4) Ibid, p.30.

إهمال، وكذلك الشخص الذي يشن ثورة عنيفة ضد نظام استبدادي، فإنه يعرف منذ البداية أنه إذا فشل؛ فسيكون مسئولًا عن الكثير من المعاناة التي ستذهب سدى، ولكن إذا نجح في ذلك، فسيكون مبَّررًا من خلال المحصلة الكلية[١].

يرى «ناجل» أنه إذا كنا نحكم على الناس بسبب ما يقومون به بالفعل أو ما فشلوا في القيام بفعله، واستبعدنا ما كانوا سيفعلونه إذا كانت الظروف مختلفة، فهذا الشكل من التحديد الأخلاقي بطريقة فعلية هو مفارق، ومفهوم المسئولية مفارق أيضًا؛ فقد يكون الشخص مسئولًا من الناحية الأخلاقية فحسب عما يفعله، ولكن ما يفعله ناتج عن قدرٍ كبيرٍ مما لا يفعله؛ لذلك فهو غير مسئول أخلاقيًّا عما هو عليه، وليس مسئولًا عنه، فهذا ليس تناقضًا Contradiction، ولكنه مفارقة[٢].

وللتأكيد على أنواع الحظ السابقة علينا أن ننظر في الأمثلة الثلاث الآتية لثلاثة أزواج من الأشقاء:

المثال الأول: تربي «مايك» و«جيم» من قبل أب وأم غرسوا في نفوسهم تقديس وطاعة مطلقة للسلطة؛ فقد نشأ في أسرة منظمة بإحكام، وكلاهما يُجند للخدمة العسكرية. يتم توزيع «مايك» في منطقة نائية، ولا يوجد بها أي قتال، بينما يتم توزيع «جيم» في منطقة حرب، ويأمره قائده بقتل عائلة أحد المقاتلين الأسرى من أجل كسر عزيمته، وحمله على الكشف عن معلومات حساسة وخطيرة، وبالفعل يقوم «جيم» بإطلاق النار على زوجة الأسير واثنين من أبنائه الصغار قبل أن تكسر عزيمته. أُدين «جيم» في وقت لاحق في محكمة عسكرية، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة لارتكابه جرائم قتل؛ فلو حصل «مايكل» على الأوامر نفسها في الظروف نفسها، لأظهر الوحشية نفسها التي ارتكبها «جيم». ومع ذلك، فإن سجل «جيم» الأخلاقي أسوأ من سجل «مايك»، والفرق الأخلاقي الوحيد بينهما، أن «جيم» تعرض لحظ سيئ وضعه في ظروف أدت إلى نتائج كارثية ومشئومه، على الرغم من كونه ليس شخصًا سيئًا، إلا أن سجله الأخلاقي أصبح أسوأ من سجل أخيه بسبب سوء الحظ[٣].

المثال الثاني: يعيش اثنان من الأشقاء «سارة» و«جين» على جانبي البلدة، ويجتمعان

(1) Ibid, pp.30-31.

(2) Ibid, p.34.

(3) Beach, Patrick: Moral Luck, Op.Cit, p.99.

بعد الظهر يوم الأربعاء في وسط المدينة لتناول طعام الغداء الذي يشتمل عادة على استهلاك الكوكتيلات عالية الأوكتان؛ فأصبح كلاهما في حالة سكر خفيف، وبعد الغداء قررا العودة للمنزل، تصل سيارة «سارة» بأمان، بينما تصدم سيارة «جين» طفلًا على الطريق وتقتله؛ فلو لم تشرب «جين» الكوكتيلات عالية الأوكتان، لكانت ردود أفعالها أكثر فطنة ومسئولية، وما أصابت الطفل بأذى؛ فمن الواضح أن كلًا من «سارة» و«جين» قد تصرفتا بشكل سيئ وهو القيادة في حالة السكر، ولكن سجل «جين» الأخلاقي أصبح أسوأ من أختها؛ لأن حظها السيئ أدى إلى وفاة الطفل(١).

المثال الثالث: ينفصل «كارول» و«دون» عن بعضهما في سن مبكر للغاية نتيجة طلاق والديهما، «كارول» تذهب مع والدها وهو رجل قاسي، ويربيها لكي تكون قاسية القلب، ومن ناحية أخرى يذهب «دون» مع والدته وهي سيدة تتحلى بروح الصبر والمحبة، فكل منهما ينشأ على ما تربى عليه؛ أي على قيم والديه؛ لذلك يمكن التنبؤ بسجل «دون» الأخلاقي بشكل معقول؛ لأن صفاته الأخلاقية أصبحت متأصلة بعمق، وهو على عكس سجل «كارول» الأخلاقي الذي يظهر أن طبائعها وميولها أصبحت قاسية، ولو بُدِّلت أدوار الأطفال بين الوالدين، لأصبحت «كارول» صبورة ومحبة و«دون» قاسيًا(٢).

الملاحظة المهمة في هذا المثال، أن ليس لدى «كارول» أو «دون» أي سيطرة على الوالد أو الوالدة التي كان يعيش معه أو معها، وبالتالي ليس لديه أي سيطرة حقيقية على سجله الأخلاقي، فـ«دون» حالفه حظ جيد في الحصول على شخصية فاضلة Virtuous، و«كارول» حالفها حظ سيئ في الحصول على شخصية شريرة Vicious؛ لذلك سجل «دون» الأخلاقي أفضل من سجل أخته؛ لأن حظه كان جيدًا، حيث قدمت له والدته إرشادات أخلاقية أفضل من أخته(٣).

وهذا ما يشير إليه «ناجل» قائلًا: «قد يرغب المرء في أن يتمتع بروح كريمة وسخية أو يأسف لعدم امتلاكها، ولكن لا معنى لإدانة أو لوم نفسه أو أي شخص آخر لخاصية لا تخضع لسيطرته»(٤).

(1) Ibid, pp.99-100.

(2) Ibid, p.100.

(3) Ibid.

(4) Brown, M. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Op.Cit, p.10.

توضح هذه الأمثلة ثلاث طرق يمكن من خلالها أن يحدث الحظ فيها فارقًا أخلاقيًّا مهمًّا، ففي حالة «مايك» و«جيم» تنتج الاختلافات الأخلاقية عن الظروف التي يجدان فيها نفسيهما، بحيث يميزهما الحظ الأخلاقي المرتبط بالظروف، أمَّا «سارة» و«جين» فيختلفان أخلاقيًّا بسبب نتائج سلوكهما، وهذه حالة الحظ المرتبط بالنتائج، أمَّا «كارول» و«دون» فيقعان فريسة للحظ التأسيسي أو الحظ في تكوين شخصية المرء[١].

يقسم «ويليامز» الحظ إلى نوعين؛ هما: الحظ الخارجي Extrinsic والحظ الجوهري Intrinsic، فيقول: «بعض الحظ في قرار من نوع غوغان، هو أمر خارجي لمشروعه، وبعضه جوهري، وكلاهما ضروري للنجاح، وبالتالي من أجل التبرير الفعلي»[٢].

يتضح هذا من خلال مثال الرسام «غوغان» الذي ترك عائلته من أجل البحث عن النجاح والشهرة في مدينة «تاهيتي»، فهناك عاملان ضروريان لنجاح مشروعه أو فشله، أحدهما داخلي والأخر خارجي؛ الحظ الداخلي هو فشل «غوغان» بوصفه رسامًا موهوبًا، حيث أساء تقدير موهبته وميله إلى الرسم، وهذا الفشل يكشف عن خطأ في الطريقة التي يفكر بها؛ إمَّا عن موهبته الفنية الخام، أو عن قدرته على الاستفادة من الانغماس في ثقافة الأعمال الفنية العالية[٣].

فالحظ الجوهري كما يشير «ويليامز» يركز في قضية «غوغان» على مسألة واحدة تقريبًا، وهي إذا كان رسامًا موهوبًا حقًّا، فيمكنه أن ينجح في القيام بعمل ذي قيمة حقيقية[٤].

أمَّا الحظ الخارجي فمن شأنه أن يجعل الفاعل يندم على الأفعال التي لم يفعلها طواعية، فمثلًا يقود سائق شاحنة بيقظة واهتمام مع اتباع جميع قواعد المرور، ولكن بشكل غير متوقع يمر طفل عبر الطريق، ويصطدم بالسيارة، فالسائق يعرف أنه قاد بعناية، وكان يقظًا وحذرًا، ولكنه ما زال غير قادر على فصل نفسه عن وفاة الطفل، وسوف يشعر بالندم على ما حدث؛ بسبب تورطه فيما حدث، بالرغم من أن الحادث كان غير متوقع وغير مقصود، إلا أنه لا يمكن

(1) Beach, Patrick: Moral Luck, Op.Cit, pp.100-101.

(2) Williams, Bernard: Moral Luck; Philosophical Papers 1973-1980, Op.Cit, p.26.

(3) Beach, Patrick: Moral Luck, Op.Cit, p.110.

(4) Williams, Bernard: Moral Luck; Philosophical Papers 1973-1980, Op.Cit, p.26.

القضاء على ندمه، وهذا ما يسمى بندم الفاعل، والذي يختلف عن الندم الذي يشعر به المشاهد بسبب وقوع هذا الحادث[١].

يختلف ندم الفاعل عن ما يشعر به المشاهد؛ لأن سائق السيارة شارك في الحادث، أمَّا الشاهد فلم يشارك في الحدث، والنقطة التي يجب ملاحظتها هنا هي أن شعور الفاعل بالندم بسبب الأفعال غير الإرادية الخارجية، ويدل هذا على أن ندم الفاعل مشروطًا بالحظ؛ لأنه يعتمد على ظروف خارجة عن سيطرة الفاعلين، بعبارة أخرى قد يعتمد الوضع الأخلاقي لسلوكنا على الحظ؛ أي يتم الحكم علينا بسبب الأشياء التي لسنا مسئولين عنها، وهي خارجة عن سيطرتنا[٢].

خاتمة

تأسيسًا على ما سبق، يمكن استخلاص مجموعة من النتائج؛ أهمها:

أولًا: مبدأ السيطرة هو ذلك المبدأ الذي ينص على أن تقييم الأفعال الأخلاقية أو تقييم الفاعلين الأخلاقيين يعتمد اعتمادًا كليًا على الأفعال التي تقع تحت سيطرة الفاعلين، أي أن التقييم يتوقف على العوامل الداخلية للفاعلين.

ثانيًا: يقصد بالحظ الأخلاقي أن معظم التقييمات الأخلاقية التي نقوم بها بناء على مبدأ السيطرة متناقضة مع نفسها؛ لأن هناك العديد من العوامل الأخرى التي تتدخل في أفعال المرء وقراراته، وهي عوامل لا تقع تحت سيطرته، لذلك ينبغي مراعاة تلك العوامل في أثناء تقييماتنا الأخلاقية.

ثالثًا: المسئولية الأخلاقية مفارقة لمفهوم الحظ الأخلاقي، فكل منهما يستبعد الآخر؛ لأنه إذا كان الفاعل مسئولًا فحسب عن الأفعال التي تقع تحت سيطرته، فإن معظم ما يفعله لا يقع تحت سيطرته؛ بسبب العوامل الخارجية التي تتحكم في أفعال المرء وقراراته، وبالتالي فهو غير مسئول أخلاقيًا عن الأفعال التي تقع تحت سيطرته.

رابعًا: تتعدد أنواع الحظ الأخلاقي بتعدد المواقف الأخلاقية التي ينشأ فيها التقييم

(1) Makkuni, Santosh: Moral Luck and Practical Judgment, Op.Cit, pp.201-202.
(2) Ibid, p.202.

الأخلاقي، فهناك الحظ التأسيسي وهو الحظ المرتبط بالميول والقدرات والأمزجة، والحظ المرتبط بظروف المرء وملابساته، أي المواقف التي نجد أنفسنا فيها و ينبغي علينا مواجهتها، وهناك الحظ المرتبط بالأسباب السابقة للفعل وتأثيراته، لأن معظم أفعال المرء محددة بأفعال سبقتها، والحظ المرتبط بنتائج الأفعال أو المحصلة الكلية للفعل، فالأفعال قد لا تأتي على النحو المعد له؛ لأن هناك عوامل خارجية قد تتدخل في تغيير مسار الفعل، لذا ينبغي النظر إلى المحصلة الكلية للفعل قبل إصدار أي تقييمات أخلاقية.

خامسًا: التقييم في الحظ الأخلاقي يعتمد على مفاهيم تختلف عن المفاهيم التقليدية التي اعتدنا عليها في فلسفة الأخلاق، فبينما تعتمد فلسفة الأخلاق على مفاهيم، مثل: الخير والشر، الصواب والخطأ، الصدق والكذب، يعتمد التقييم في الحظ الأخلاقي على مفاهيم، مثل: الثناء واللوم، المدح والذم، الذنب والطاعة، الجيد والسيئ، الثواب والعقاب، أفضل وأسوأ، وهي مفاهيم نسبية ترتبط بطبيعة الحالة أو الموقف.

سادسًا: تضعنا ظاهرة الحظ الأخلاقي أمام معضلة مهمة، وهي إمَّا أن نلتزم بشرط السيطرة في أثناء تقييمنا للأفعال الأخلاقية، وفي هذه الحالة سوف نتخلى عن العديد من المواقف والحالات التي يتعرض لها الفاعل، مع التأكيد على أنه ليس للحظ أي دور في تقييماتنا الأخلاقية، أو أن نعترف بدور الحظ في تقييماتنا الأخلاقية، ومن ثم ينبغي أن نتخلى عن شرط السيطرة، وفي هذه الحالة ينبغي علينا أن نُعيد النظر في معظم المفاهيم والمصطلحات الأخلاقية التي تؤكد عليها النظريات التقليدية والمعاصرة أو نعيد منهجية البحث في النظريات الأخلاقية المعاصرة.

مصادر البحث ومراجعه

أولًا: مصادر ومراجع باللغة الأجنبية

1- Anderson, B. Mark: Moral Luck and Libertarianism, Ph.D., University of Wisconsin-Madison, ProQuest, 2012.

2- Athanassoulis, Nafsika: Common-sense Virtue Ethics and Moral Luck, Ethical Theory and Moral Practice, Vol.8, No.3, Springer, (Jun., 2005).

3- Beach, A. Patrick: Moral Luck, Ph.D., The Graduate School, Syracuse University, United States, ProQuest, June 2012.

4- Brown, Marie. Alison: Moral Luck and Moral Responsibility, Ph.D. College of Arts & Sciences, The Florida State University , ProQuest, 2010.

5- Feinberg, Joel: Doing and Deserving; Essays in the Theory of Responsibility, Princeton University Press, Princeton, 1970.

6- Hurley, Susan: Luck, Responsibility and 'Natural Lottery, Journal of Political Philosophy, Vol.10, No.1, Wiley Online Library, 2002.

7- Hwang, Kyung-Sig: Moral Luck, Self-Cultivation, and Responsibility; The Confucian Conception of Free Will and Determinism, Philosophy East and West, Vol.63, Ni.1, University of Hawai'i Press, United State, (January., 2013).

8- Kant, Immanuel: Groundwork for The Metaphysics of Moral, Translated and Edited by; Mary Gregor and Christine M. Korsgaard, Cambridge University Press, Cambridge, 1998.

9- Michaelson, Christopher: Moral Luck and Business Ethics, Journal of Business Ethics, Vol.83, No.4, Springer, (Dec., 2008).

10- Nagel, Thomas: Moral Luck, In: «Mortal Questions», Cambridge University Press, Cambridge, 1979.

11- Nelkin, K. Dana: Moral Luck, Stanford Encyclopedia of Philosophy, Ed by: Edward N. Zalta and Others, Apr 10, 2013. In: https: //plato.stanford.edu/entries/moral-luck/.10-4-2019.

12- Nida-Rumelin, Julian: There is no Moral Luck, Archives for Philosophy of Law and Social Philosophy, Vol.93, No.2, Franz Steiner Verlag, Germany, 2007.

13- Shook, R. John (Ed and Others): The Dictionary of Modern American Philosophers, Vol.3, Thoemmes Continuum, Bristol, England, 2005.

14- Slote, Michael: The Problem of Moral Luck, Philosophical Topics, Vol.22, No.1&2, University of Arkansas Press, United State, (Spring and Fall., 1994).

15- ……..: Virtue Ethics, Utilitarianism and Symmetry, In: How Should One Live? Essays on The Virtues, Ed By; Roger Crisp, Oxford University Press, Oxford Scholarship Online, 2003.

16- Statman, Daniel: Moral Luck, In: «Routledge Encyclopedia of Philosophy», General Editor: Edward Craig, Routledge, New York, 1998.

17- Williams, Bernard: Moral Luck; Philosophical Papers 1973-1980, Cambridge University Press, Cambridge, 1981.

18- Woodford, Frances. Nicole: Moral Luck, Control, Choice, and Virtue, Ph.D. The University of Hull, England, September 2016.

19- Zimmerman, J. Michael: Luck and Moral Responsibility, Ethics, Vol.97, No.2, The University Chicago Press, Chicago, (Jan., 1987).

20- ……..: Moral Luck, A Partial Map, Canadian Journal of Philosophy, Vol.36, No.4, Canada, (Dec., 2006).

ثانيا: مصادر مترجمة إلى اللغة العربية

١- أرسطو طاليس: الأخلاق، ترجمة: إسحق بن حنين، حققه وشرحه وقدم له د. عبد الرحمن بدوي، سلسلة الذخائر (١٦١)، تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٧م.

٢- .....: علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ترجمه من اليونانية إلى الفرنسية وقدم له وعلق عليه: بارتلمي سانتهلير، نقله إلى العربية: أحمد لطفي السيد، جـ ١، الكتاب الثالث، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤م.

٣- كانـت، إمانويل: تأسـيس ميتافيزيقـا الأخلاق، ترجمه وقدم له وعلق عليـه د. عبد الغفار مـكاوي، راجع الترجمة د. عبد الرحمن بدوي، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة، ١٩٨٠م.